الفصل الخامس

عمر والولاية على المدينة والحجاز

انصرف عمر في ريعان شبابه عن أبهة ولاية أبيه على مصر ، وأراد أبوه إخراجه معه الى مصر من الشام ، وهو فتى حديث السن يشك في بلوغه ، فأبى ذلك وطلب من أبيه ماهو أنفع له من ذلك ، لحرصه على العلم ورغبته في الأدب ، كما بينا سابقاً ، واقترح على أبيه ترحيله الى المدينة ليتعلم على فقهائها ، ويتأدب بآدابهم ، فأرسله أبوه الى المدينة ، فتعلم على مشايخ قريش ، وتجنب شبابهم ، وداب على التعلم حتى اشتهر اسمه [1] ، وذاع صيته ، ولمع بين أقرانه ، فكان تحصيله العلمي خير عمل بوأه لولاية المدينة ، بل والحجاز كلها .

ولايته على الحجاز (المدينة ومكة والطائف) :

حينما بلغ عمر بن عبد العزيز الخامسة والعشرين من عمره ، وفي ربيع الأول سنة ٨٧ هـ/ ٧٠٦ م ، ولاه الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ/ ٧٠٥ - ٧١٥م) إمارة المدينة ٨٧هـ ، ثم مكة والطائف سنة ٩٠ هـ ، ودامت ولايته من سنة

(١) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٣

٨٧ هـ الى سنة ٩٣ هـ ، فأقام للناس الحج سنة ٨٩هـ وسنة ٩٠هـ ، وحج الوليد سنة ٩١هـ ، ثم حج عمر بالناس سنة ٩٢ أو ٩٣هـ [١] .

وفي أثناء ولايته اكتسب عمر مهارة فائقة في الإدارة والسياسة والحكم ، وأدرك مخاطر المسؤولية العامة التي يتحمل عبئها إمام المسلمين ، فانتهج سياسة الرجل المؤمن بحق ، واتبع منهج الخلفاء الراشدين الذين أوصى النبي ﷺ باتباع سنتهم في موعظة بليغة مؤثرة ، وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، وكأنها كانت موعظة مودع ، فقال .

«أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، والسمع والطاعة ، وإن تأمّر عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم ، فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة» [٢] .

منهجه في الإدارة والسياسة :

التزم عمر سيرة الراشدين هذه في ولايةالمدينة وما يتبعها من بلاد الحجاز ، فتجنب أخطاء الولاة السابقين ، وعمل بما يأمر به الإسلام تماماً ، فكان في ولايته من أحسن الناس معاشرة ، وأعدلهم سيرة .

١ ـ رفع الظلم :

كان هشام بن اسماعيل المخزومي والي المدينة قبل عمر ، فآذى الناس ، وعلى التخصيص سعيد بن المسيب وأمثاله ، فكانت تولية الوليد لعمر بقصد تهدئة

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٤ ، أمراء البلد الحرام لزيني دحلان : ص ١٠ ـ ١١ ، ط الدار المتحدة للنشر ، بيروت

(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، عن أبي نجيح العرباض بن سارية

الغليان وثورة النفوس . وأدرك عمر الحال ، فأبطأ عن الخروج الى المدينة ، لما أصاب أهلها من هشام ، فسأله الوليد عن سبب إبطائه ، فرجع إليه الرسول يقول :

زعم عمر أن له إليك ثلاث حوائج ، فقال الوليد : عجله إلي . فلما جاء قال : إن أباك ولى من كان قبلي ، فأنا أحب ألا تأخذني بعمل أهل العدوان والظلم . فقال الوليد : اعمل بالحق ، وإن لم ترفع إلينا إلا درهماً واحداً [1] .

٢ ـ استشارة الفقهاء :

كان الخلفاء الراشدون إذا عرضت لهم قضية جمع الخليفة منهم رؤساء الناس فاستشارهم ، فإذا اتفقوا على أمر عمل به . وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز في أثناء ولايته على المدينة ، فكان إذا وقع له أمرمشكل جمع فقهاء المدينة عليه ، وقد عين عشرة منهم للمشورة ، وكان لايقطع أمراً بدونهم أو من حضر منهم ، وقد سبق ذكرهم ، وهم فقهاء المدينة السبعة وأربعة آخرون وهم [2] :

سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وسالم بن عبدالله ، وعبدالله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت .

كان هؤلاء الفقهاء يمثلون الفهم الصحيح للإسلام ، ويلتزمون بمنهج النبوة والراشدين ، ويجتهدون فيما استجد لمعرفة أحكام المسائل الطارئة [3] . فالتزم عمر مايقررون ومايجتهدون ، مفضلاً مايراه سيد التابعين سعيد بن المسيب ، فكان عمر لا يخرج عن قوله .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي : ص ٣٢

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٤

(٣) انظر سيرتهم في صفة الصفوة : ٢/ ٤٤ ـ ٥٧

جمع عمر هؤلاء الفقهاء العبَّاد الأعلام الزهاد ، فأخبرهم بما يريد ، وأنه إنما دعاهم لأمر يؤجرون عليه ، ويكونون أعواناً على الحق ، وأعلمهم أنه لايريد أن يقطع أمراً إلا برأيهم جميعاً ، أو برأي من يحضر منهم ، وطلب إليهم أن يراقبوا المظالم ويرفعوها إليه ، فخرجوا من عنده ، وهم يجزونه خيراً [1] .

ولم يكن ذلك غريباً فقد عايشهم عمر قبل الولاية تلميذاً باراً ، ومتعلماً متأدباً بهم ، وشاباً مستقياً مقتنعاً بسيرتهم وآرائهم ، فكان يقضي برأيهم ، ويعمل بمشورتهم ، قال ابراهيم بن أبي عبلة : قدمت المدينة ، وبها ابن المسيب وغيره ، وقد ندبهم عمر الى رأي [2] .

٣ ـ عظة فقيه :

إن حدة طبع عمر قد تدفعه الى عدم الإصغاء التام الى عظة فقيه ، ثم يندم ويتدارك الأمر ويعتذر إليه ، وهذا ماكان بينه وبين محمد بن كعب القُرَظيّ [3] :

مرّ عمر بن عبد العزيز ذات يوم بالمدينة في ولايته ، وهو يسحب ثوبه ، فناداه محمد بن كعب : ياعمر ، إن رسول الله ﷺ قال : ماجاوَزَ الكعبين ، فهو في النار ، فالتفت إليه مُغْضَباً فقال :

اتق الله يا ابن كعب ، لا تكن ذُبالة تضيء للناس ، وتحرق نفسها . فلما ولي عمر الخلافة ، سأل عن محمد بن كعب القرظي ، فأخبر أنه غازٍ ، فكتب الى عامله على الدروب يأمره أن يجهِّزه ويسرحه إن خرج إليه من غزوه ، إلا أن يكره ذلك ، فيعفيه .

---

(١) تاريخ الطبري : ٥/ ٢١٦

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٤

(٣) ابن عبد الحكم : ص ١٤١ ومابعدها ، أخبار عمر للآجري : ص ٧٣ ومابعدها ، الخراج لأبي يوسف : ص ١٦

فلما خرج محمد الى العامل ، سأله أن يسير الى عمر ، وأقرأه الكتاب قال : أما الجهاز فلا حاجة لي به ، أنا أقوى ، وقد كنت أردت المسير إليه ، لو لم يأتِ كتابه في أمري .

فتوجه الى عمر ، فلما دخل رآه على هيئة غير الهيئة التي كان عهِدَه عليها ، فقال :

يامحمد ، استغفر لي من سوء مردودي عليك ، حين وعظتني بالمدينة ، وبكى حتى اخضلت لحيته .

فقال محمد: غفر الله لك يا أمير المؤمنين، وأقالك عثرتك . وجعل يكثر اللحظ الى عمر يقلِّب فيه بصره ، فقال عمر :

يامحمد ، فيمَ تنظر إليّ ؟ فقال :يا أمير المؤمنين ، أنظر وأتعجب فأقول : أين ذاك اللون النضير ، والشعرة الحسنة ، والبدن الريان ؟ فقال عمر :

فكيف لو رأيتني بعد ثلاث من دفني ، وقد سقطت حدقتاي على خدَّيَّ ، وسال منخراي وفمي صديداً ودوداً ؟ كنت أشد نكرة لي منك اليوم .

وقال عمر للقرظي : «عظني» قال : «لا أرضى نفسي لك ، إني لأصلي بين الغني والفقير ، فأميل على الفقير ، وأوسع على الغني» [1] .

وقال محمد بن كعب لعمر : «لا تنظرن الى سلعة قد بارت على من كان قبلك تريد أن تجوز عنك» [2] .

٤ ـ عظة مولاه مزاحم بن أبي مزاحم :

يتميز العرب والمسلمون بالبساطة ، ولم تكن الألقاب لأمرائهم ذات أهمية

---

(١) البيان والتبيين : ٣/ ٧٤

(٢) المرجع السابق : ٣/ ٨٥

تذكر ، فتضايق بعض الناس بشيوع لقب الأمير لعمر ، حتى كاد يختفي اسمه ، فانتظر مولاه مزاحم فرصة ، يكلم فيها عمر بما شاع .

فحدث أن حبس عمر رجلاً ، وجاوز عمر في حبسه القدر الذي يستحقه ، فكلمه مزاحم في إطلاقه ، فقال له عمر : ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو أكثر مما مرَّ ، فقال مزاحم مغضباً :

ياعمر بن عبد العزيز ، إني أحذرك ليلة تمخض بالقيامة ، وفي صبيحتها تقوم الساعة ! ياعمر : ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع : قال الأمير ، قال الأمير !

قال عمر : إن أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم ، فوالله ماهو إلا أن قال ذلك ، فكأنما كشف عن وجهي غطاء [1] .

٥ ـ إصلاحاته في المدينة :

امتاز الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٥م) بإصلاحاته العمرانية الواسعة ، فأمر بتعبيد الطرق ، وتسهيل السبل وحفر الآبار ، وقد تم في زمنه بناء المسجدين العظيمين : مسجد المدينة ، والجامع الأموي بدمشق .

ففي سنة ٨٨ هـ طلب الوليد من عامله في الحجاز توسيع المسجد النبوي وأن يشتري الدور الملاصقة له ، ويضم بيوت أزواج النبي ﷺ إليه ، وقال له : «فإن اعترض على ذلك أهل المدينة ، فإنّ لك في ذلك سلف صدق : عمر وعثمان» فقد قاما ببعض الإصلاحات في المسجد .

وأرسل إليه بالفعلة والبنائين من الشام ، وأمده ملك الروم بمائة ألف مثقال من الذهب وبمائة عامل وبأربعين جملاً محملة بالفسيفساء. والمعروف أن مثل هذه

(١) سيرة عمر لابن الجوزي : ص ١٤٠

الأموال ليست من أجل المسجد وحده ، وإنما تنتهز الفرصة عادة لتقوية العلاقات الودية بين الدولتين ، وقد أنفق منها على مسجدي دمشق والمدينة كما هو معروف تاريخياً .

فاستشار عمر الفقهاء ، فرفضوا ، فكتب الى الوليد ، فأصر على ذلك ، فابتدأ عمر بن عبد العزيز بالعمل ، وقام به خير قيام ، وأدخل حجرات أزواج النبي في المسجد، واشترى ما بنواحيه ، ثم بنى ووسع وزخرف ، وقدم القبلة، وجوَّف المحراب ، ورفع المنارة ، فكان أول من أحدث تجويف المحاريب في المساجد ، وحين بنى المئذنة انتشرت المآذن في بلاد المسلمين تشبهاً بمآذن الشام .

وقام عمر أيضاً بناء على طلب الوليد بتعبيد الطرق وتذليل العقبات وحفر الآبار ، وإنشاء الفنادق وهي الخانات على طريق الحجاج لتيسير السير عليها .

فجازاه الوليد بأن جعله عاملاً على مكة والطائف مع إمرة المدينة ، ثم عقدت له عام ٩٠ هـ راية الإمارة على كل أنحاء الحجاز [1] .

٦ ـ رفض استقبال الحجاج بن يوسف :

حج الخليفة الوليد بن عبد الملك في سنة ٩١هـ ومر بالمدينة ، فاستقبله عمر في موكب عظيم ، كان فيه عشرون من كبار رجال المدينة ، فأعجب بأعمال عمر الإصلاحية وبتوسيع المسجد النبوي .

وداب عمر على الإحسان الى الناس في ولايته ، وحرص على أن يقيم العدل والمساواة بينهم ، وتجنب أخطاء الولاة الآخرين ، فكتب الى الوليد يخبره بظلم الحجاج وسفكه الدماء في العراق .

---

(١) تاريخ الطبري : ٥/٢٢٢ ـ ٢٢٣ ، ٢٣٠ ـ ٢٣١

ثم كتب أيضاً الى الخليفة الوليد حينما علم الناس أنه في سنة ٩٢هـ عقد الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف ، وأنه يمر بالمدينة ، فهاج أهل المدينة ، وطلب عمر الى الخليفة يستعفيه أن يمر الحجاج به ، فإن النفوس تغلي عليه ، وخاف الخليفة طغيان الأمر ، فأمر الحجاج أن يجاوز المدينة في طريقه ، ويسلك الى مكة من طريق أخرى [١] .

٧ ـ عزل عمر :

قد أوغرت هذه الكتب صدر الحجاج على عمر ، فلما عاد من الحج بدأ يشكو ويدس ، ويحرض الخليفة الوليد على عمر ، ويقول : إن كثيراً من مرّاق أهل العراق قد جلوا عنه ، ولجأوا الى المدينة ومكة ، وإن ذلك وهن وضعف ! وتكررت محاولات الدس حتى أرسل الوليد الى الحجاج يستشيره فيمن يوليه الحجاز إذا عزل عنه عمر بن عبد العزيز .

فأشار عليه بأحد رجلين هما : خالد بن عبدالله القسري على مكة ، وعثمان بن حيان المري على المدينة ، فاستحسن الوليد الرأي ، وعزل عمر سنة ٩٣هـ ، بالرغم من اختباره قبل ذلك بإصدار الوليد له عدداً من الأوامر لمعرفة مدى تنفيذه لها .

فعادت الحجاز بعد عمر في عهد هذين الواليين الظالمين تغلي بالكراهية والحقدَ على بني أمية ، بعد أن كانوا سعداء في عهد ولاية عمر بن عبد العزيز ، وبعد أن كانت المدينة حرماً آمناً للمسلمين ، يأوي إليها الفارون من ظلم الحجاج بن يوسف في العراق ، وظلم غيره في مصر واليمن .

ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة في شعبان سنة ٩٣هـ ، التفت إليها وبكى وقال : نخشى أن نكون ممن نفت المدينة [٢] ؟! مشيراً إلى قول النبي ﷺ في

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٢٩

(٢) ابن عبد الحكم : ص ٣٢

صفة المدينة : «إنها طيبة ، وإنها تنفي الخبث ، كما تنفي النار خبث الفضة» وفي لفظ آخر : «ألا وإن المدينة كالكير يخرج الخبث ، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها ، كما ينفي الكير خبث الحديد» [1] .

٨ ـ فترة تأمل ورقابة :

ترك عمر المدينة بعد عزله ، وعاد الى منزله ومزرعته في السويداء على طريق المدينة الى الشام مع مولاه مزاحم بن أبي مزاحم ، يراقب الأحداث وأحوال البلاد في عهد الوليد عن كثب ، فالحجّاج بن يوسف في العراق يرهب الناس ، ويرعد ويزبد بسيفه ، ولسانه الشديد ، ويسفك الدماء ، ويسجن الأبرياء ، وقُرّة بن شريك بمصر يلهو ويظلم ، ويزيد بن أبي مسلم في المغرب يجبي المال الحرام ، ويسفك الدم الحرام ، ومحمد بن يوسف أخو الحجاج في اليمن ينشر الظلم والعسف ، وفي كل بلد أمثال هؤلاء القساة الظالمين [2] .

وعمر يتأمل ويتألم مما يرى ويسمع ، فيدعو قائلاً ، امتلأت الأرض والله جوراً فأرح الناس [3] .

أما علماء الأمة فمعزولون عن المشاركة في الحياة العامة ، وأما العبّاد والصلحاء فمطرودون أو مقتولون أو محبوسون .

وكان عمر بن عبد العزيز يتحرق ألماً على سوء هذه الحال ، فأقبل على الشام ينصح ويعلم ، حتى كان العلماء معه تلامذة ، واقترب من الخليفة الوليد الذي تجهم له بعزله عن ولاية المدينة ، لكنه لم يقطع وده معه ، ورأى من الخير أن

---

(١) رواه مسلم عن زيد بن ثابت

(٢) ابن عبد الحكم : ص ١٥٠

(٣) الكامل للمبرد : ١/ ٣٠٥

ينصحه في ولاته وعماله ، حينما يجد الفرصة مواتية ، متخذاً الصراحة منهجاً ، والجرأة في القول والنصح طريقاً وأسلوباً ، فقال يوماً للوليد :

يا أمير المؤمنين ، إن عندي لك نصيحة ، فإذا خلا لك عقلك ، واجتمع فهمُك ، فسلني عنها !

قال الوليد : ما يمنعك الآن ؟ قال : أنت أعلم إذا اجتمع لك ما أقول، فإنك أحق أن تفهم .

ثم دخل عمر على الوليد مع جماعة من أهل الشام ، بعد أيام ، فقال الوليد : نصيحتك يا أبا حفص ! فقال دون مهابة ولا مجاملة أمام الحاضرين :

إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم ، وإن عمالك يقتلون ، ويكتبون لك ذنب المقتول ، وأنت المسؤول عنه والمأخوذ به ، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحداً حتى يكتب إليك بذنبه ، ثم يشهد عليه ، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك .

فقال الوليد : بارك الله فيك يا أبا حفص .

وجرب الوليد ذلك ، فكتب الى ولاة الأمصار ، ومنهم الحجاج بما في نصيحة عمر ، فأرسل إليه الحجاج برجل حروري من الخوارج ، فما كان منه ـ كما عرفنا سابقاً ـ إلا أن شتم الخليفة ، فاستشار الوليد عمر في أمره ، فلم ير قتله ، وقال له : تشتمه كما شتمك ! وقد بلغ النصح بعمر للوليد أن أغضبه وأمر بحبسه في بيت حتى يموت ، ثم تشفع فيه بعض الناس ، فأطلق سراحه ، بعد أن كاد يموت في السجن .

ثم مات الحجاج سنة ٩٥هـ ، فسجد عمر شكراً لله حين بلغه موته ، وكذلك مات قرة بن شريك العبسي والي مصر في الشهر الذي مات فيه الحجاج ، ثم مات الوليد سنة ٩٦هـ ، وبويع بالخلافة لسليمان ، ففرح عمر ، وتولى بنفسه أخذ البيعة لسليمان يوم مات الوليد ؛ لأن سليمان كان ألين عريكة ، وأسمع

للنصيحة من الوليد ، كما أنه اشتهر بالفصاحة بعكس أخيه الوليد ، فضم سليمان إليه عمر مستشاراً ، ينصحه ويشير عليه كما عرفنا ، وولاه على المدينة مرة ثانية ، كما ذكر ابن عبد الحكم [1] .

وكانت تجارب عمر في ولاية المدينة ، وقربه من الخلفاء ، ناصحاً أو مستشاراً ، مفيدة له في مراقبة الأوضاع عن كثب ، وفي الإعداد للخلافة ، وقيامه بعد استخلافه بحركته الإصلاحية الكبرى في جميع البلاد الإسلامية .

مستشار سليمان :

ولي عمر إمرة المدينة ثم الحجاز كلها كما عرفنا ، ثم عزله الوليد ، فعاد الى الشام ، ثم أصبح في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك في الشام مستشاراً له [2] ، ينصحه ويشير عليه في معضلات الأمور ، ويأخذ سليمان برأيه في كثير من الأمور حتى أحبه الناس ، فمن مشورته : أنه أشار عليه بعزل نواب الحجاج ، لقطع دابر الظلم ، وإخراج المظلومين من السجون ، وإطلاق الأسرى ، وأداء الصلاة في أول وقتها بعد أن كانوا يؤخرونها إلى آخر وقتها ، فنفذ سليمان ذلك ، قال الطبري على لسان الناس : «كان سليمان مفتاح الخير ، أذهب عنهم الحجاج ، وأطلق الأسارى ، وخلى أهل السجون ، وأحسن الى الناس ، واستخلف عمر بن عبد العزيز» .

وكان لعمر مع سليمان مواقف نصح وإرشاد وتذكير بشدة الحساب يوم القيامة ، وقد مر معنا في بحث أخلاق عمر أمثلة كثيرة من هذه المواقف . وكان سليمان يقدر عمر ويحرص على ملازمته له أشد الملازمة ، إلا أن هذا التقدير لم يصل الى حد

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم : ص ١٣٩ ، لكن هذا مخالف لما في الطبري فإنه ذكر أن سليمان عزل عثمان بن حيان وولى ابا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم

(٢) تقريب التهذيب : ٢/ ٦٠

التفكير بأن يعهد له الخلافة من بعده ، وإنما كان تفكيره في تولية أحد أولاده ، لولا اقتراح رجاء بن حَيْوة الذي كان وزير صدق للأمويين ، فكيف تم ذلك [1]؟

استخلاف عمر :

كان سليمان قد عقد ولاية العهد من بعده لابنه أيوب ، لكن أيوب توفي قبل سليمان ، ولم يبق لسليمان ولد إلا صغير ، فلما حضرته الوفاة أراد أن يستخلف ، فطلب أن يعرض عليه أولاده في القُمُص والأردية مرة ، ومتقلدين السيوف مرة أخرى ، فعرضوا عليه ، فوجدهم صغاراً لا يحتملون مالبسوا من القُمُص والأردية يسحبونها سحباً ، ولا يحملون السيوف ، وإنما يجرونها جراً ، وعمر بن عبد العزيز يقول له في كل مرة :

يا أمير المؤمنين، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى﴾ .

ثم شاور سليمان رجاء بن حيوة في ولاية ابنه داود ، فقال له رجاء : إنه غائب عنك بالقسطنطينية ، ولا تدري أحي هو أم ميت ! فقال سليمان في ضعف : من ترى ؟

فقال رجاء : رأيك يا أمير المؤمنين ، قال سليمان : فكيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟

فقال رجاء : أعلمه والله خيراً فاضلاً ، مسلماً يحب الخير وأهله ، ولكن أتخوف عليه إخوتك ، ألا يرضوا بذلك .

ثم وافق سليمان على ذلك ، وقال : «والله لأعقدن عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب» .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٣٣ ومابعدها والبداية والنهاية ٩/ ١٨١ ومابعدها

فلما اشتد به وجعه ، عهد عهداً لم يُطلع عليه أحداً إلا رجاء بن حَيْوَة الكِندي ، استخلف فيه عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر ، وأملى الخليفة سليمان على رجاء كتابه في ولاية العهد :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز ، إني قد وليته الخلافة من بعدي ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ، ولا تختلفوا ، فيطمع فيكم عدوكم» .

وقال لصاحب الشرطة كعب بن حامد العبسي :

اجمع أهل بيتي ، فمرهم ، فليبايعوا على ما في هذا الكتاب مختوماً ، فمن أبى منهم اضرب عنقه .

ثم جاء أهل بيت الخلافة الى بيت سليمان يعودونه ، ودخل رجال منهم فسلموا ، فرأوا به الموت ، فقال لهم . بايعوا وأطيعوا من وليت فيه .
فبايعوا لذلك رجلاً رجلاً ، فلما تفرقوا جاء عمر بن عبد العزيز إلى رجاء بن حيوة ، فقال له :

إني أرى أمير المؤمنين في الموت ، ولا أحسبه الا سيعهد ، وأنا أناشدك الله ، إن ذكرني بشيء من ذلك إلا صددته عني ، وإن لم يذكرني ألا تذكرني له في شيء من ذلك .

فقال رجاء لعمر :
لقد ذهب ظنك مذهباً ما كنت أحسبك تذهبه ، أتظن بني عبد الملك يدخلونك في أمورهم ؟

وقد كان سليمان فرغ من ذلك ، ولكنه أراد إخفاءه عن عمر . ثم قال رجاء لمن كان يعود الخليفة في مرض موته :

«يأمركم أمير المؤمنين أن تبايعوا لمن عهد إليه ، وتسمعوا وتطيعوا» .

فلما مات الخليفة ، أرسل رجاء الى كعب بن حامد ، فجمع الناس في

مسجد دابق ، وكان فيهم وجوه بني مروان وبني أمية وأشراف الناس ، فطلب منهم رجاء أن يبايعوا قائلاً :

بايعوا لمن في هذا الكتاب . فقالوا : قد بايعنا ، فطلب منهم البيعة ثانية ، فبايعوا ، ثم قال رجاء : قوموا الى صاحبكم فقد مات .

ثم نظر رجاء ، فإذا هو لايرى عمر بن عبد العزيز ، فخرج يلتمسه في المسجد ، فوجده في مؤخرة المسجد ، فأقبل عليه وقال : السلام عليك ،يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، قم الى المنبر . فقال : أنشدك الله يا رجاء. فقال رجاء :

أناشدك الله ، أن يضطرب بالناس حبل ، فقد لقي سليمان ربه ، وقضى الله عليه الموت .

فقام عمر متثاقلاً يسانده رجلان من جنبيه ، حتى جلس على المنبر ، فنعى للناس سليمان ، ثم فتح الكتاب ، فإذا فيه استخلاف عمر ، ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر .

فنادى هشام عند سماع عمر : هاه ، لا نبايعه أبداً ، فشهر رجل من أهل الشام سيفه وقال : لأمر قد قضاه أمير المؤمنين تقول : هاه . وقال رجاء لهشام : أضرب عنقك والله ، قم فبايع . فلما قرأ عمر : «ثم يزيد بن عبد الملك من بعد عمر» قال هشام : سمعنا وأطعنا .

فسمع الناس وأطاعوا وقاموا ، فبايعوا لعمر .

وقد تمت البيعة بعد أن قال رجاء بن حيوة للناس الذين سكتوا فترة بعد قراءة الكتاب : ألا تقوموا الى أمير المؤمنين فتبايعوه ؟

ولكن عمر فاجأ الناس بمفاجأة هزت أركان المسجد ، لم يكن للمسلمين في العهد القريب عهد بها فقال :

«يا أيها الناس ، إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم» .

فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك ، فلِ أمرنا باليمن والبركة [1].

فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضي به الناس جميعاً ، حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ ، وخطب الناس خطاباً رائعاً ، سأذكره إن شاء الله ، فكان مما قال في خطبته :

أيها الناس ، إني لست بمبتدع ، ولكني متبع ، وإن من حولكم من الأمصار والمدن ، إن أطاعوا كما أطعتم ، فأنا واليكم ، وإن هم أبوا ، فلست لكم بوالٍ .

فرضي الناس قاطبة بخلافة عمر أشج بني أمية ، وتمت البيعة له .

طريقة البيعة لعمر :

كتب سليمان بن عبد الملك العهد في صحيفة وختمها ، ولم يشعر بذلك عمر ، ولا أحد من بني مروان سوى سليمان ورجاء ، ثم أمر صاحب الشرطة بإحضار الأمراء ورؤوس الناس من بني مروان وغيرهم ، فبايعوا سليمان على ما في الصحيفة المختومة ، ثم انصرفوا .

ثم لما مات الخليفة استدعاهم رجاء بن حيوة ، فبايعوا ثانية ، قبل أن يعلموا موت الخليفة ، ثم فتحها فقرأها عليهم ، فإذا فيها البيعة لعمر بن عبد العزيز ، فأخذوه فأجلسوه على المنبر ، وبايعوه ، فانعقدت له البيعة .

---

(١) صفة الصفوة : ٢/ ٩٤ ومابعدها .

إلا أن عمر كما أوضحت عزل نفسه، وترك البيعة حرة لجماعة المسلمين. وهذا هو الحكم الصحيح المتفق مع مبدأ الشورى والبيعة العامة التي تنعقد بها الخلافة بالنحو المطلوب شرعاً.

obeikandl.com